الاعجاز النغمي(الموسيقي)

أولاً -مفهومه ومسوغاته:

زعم بعض الباحثين أن هناك إعجازاً أطلق عليه اسم الإعجاز الموسيقي فإن القرآن الكريم لاشك أنه يتصف بالجرس الصوتي المنسجم في كل سورة من سوره مع المعنى الذي جاءت به الآيات لبيانه، ومع اللفظة التي اختيرت لهذا المعنى، وليس المقصود به أنه موسيقي وجاء بالنغمات الموسيقية، حتى لو حاول بعض الناس الذين ساروا مع وسوسة الشيطان ليخرجوا القرآن عن منهج الهداية، فإن هذه التسمية ممَّا لا ينسجم مع رسالة الإسلام، ومكانة القرآن. إذ التناسق أحد دلائله الربانية أخذاً من قوله ﷻ: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾، والتناسق ألوان وفنون، ، فهو لا يقل عن عشرين لوناً من الألوان وعشرين فناً من الفنون، تأخذ بعضها برقاب بعض، خذوا ما قاله سيد قطب (التناسق بين المعنى المراد التعبير عنه واللفظ المؤدي لهذا المعنى) أنا إن أردت أن أوصل معنى فإنني أعبر بلفظ يوصل هذا المعنى بالمعنى الآخر، فقوله ﷻ: ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن﴾ فالكلمة مرتبطة بواقع الحادثة ارتباطاً حياً محسوساً، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ اثّاقلتم الى الأرض﴾ وقوله ﷻ: ﴿ويسكن الريّح فيظللن رواكد﴾، فهذا نسميه تناسقاً بين المعنى المُراد واللفظ المؤدي لهذا المعنى، خذوا مثلاً هذا اللون والذي نسميه التناسق في الإيقاع الموسيقي في قوله ﷻ: ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾، كلّها حروف مد، فكل الكلمات كان بها مد حتى تتناسق، قال ﷻ: ﴿طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى﴾ وقوله ﷻ: ﴿والضحى، والليل إذا سجى، ما ودّعك ربك وما قلى﴾ وقوله ﷻ: ﴿كهيعص، ذكر رحمة ربك عبده زكريا، إذ نادى ربه نداءً خفياً قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾... الخ، كلها إيقاع رخي ندي، وقوله ﷻ: ﴿طسم، تلك آيات الكتاب المبين، لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين، إن نشأ ننزّل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين﴾، وقوله ﷻ: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك

فحدث﴾، هنا اختلف الجرس لماذا؟ لأن طبيعة الكلام اختلفت، فالآيات السابقة كلها نِعَمْ وهذه الآية أوامر، وهذا ما يميزه عن الشعر والنثر الذي ألفه العرب، وقد روى ابن عباس عن رائد المشركين الوليد ابن المغيرة أنه سمع القرآن من رسول الله فَرَقَ قلبه له، فبلغ ذلك أبا جهل فقال له: (..قل في القرآن قولاً يبلغ قومك أنك له منكر وكاره، فقال الوليد: وماذا أقول والله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر ورجزه، وقصيده، ولا بأشعار الجن وعبقريتها،، والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا ووالله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، ومشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه..، فقال له أبو جهل هذا لا يعجب قومك، فقل فيه قولاً، فقال الوليد: دعني أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر عن غيره، فنزل وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ،﴾، فثمة فرق بين فطرة الرجل وسجيته، وحكمه مجرداً، وبين شقوته وعناده وتعصبه، وكيف أكره نفسه على مخالفة شعوره ووجدانه، ولولا المكابرة والعناد لصدع بقول الحق.

ثانياً-سمات الإيقاع القرآني: ومن أهمها:

١-فقد جمع القرآن بين النثر والشعر فكان له سحراً عجيباً وقد أعفي من قيود القافية الشعرية والتفعيلات التامة، فتمتع بالحرية التامة في التعبير، وأخذ موسيقى الشعر الداخلية وفواصله المتقاربة في الوزن مما أغناه عن التفعيلة والقوافي.

٢-إن موسيقاه تنبعث من كل لفظة من ألفاظه، فيشكل لوحة فنية بديعة في لونها وموسيقاها، فاسمع لجرس(ليبطئن) من قوله ﷻ: ﴿ وإن منكم ليبطئن﴾ إذ ترسم صورة في جرس العبارة المجاورة، وفي قوله ﷻ: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس﴾ تسمع همس السين المتكررة فتستشف نعومة ظلها وتستمتع بخفة وقعها، و قوله ﷻ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس﴾، فتصوير الألفاظ بأجراسها عند تلاوتها تحدث(وسوسة) تناسب جو السورة (الوسواس الخناس..) بينما تصاب بالرهبة حين تقع في صدرك كلمة (تحيد)

وأنت تسمع صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المدية في لفظ(تحيد) استعملها بدل كلمة (تبتعد) أو (تنحرف) في قوله ﷻ: ﴿ وجاءت سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيد﴾، وكيف تستشعر أثر قوله (فكبكبوا) في قوله ﷻ: ﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون﴾، إذ يقعوا على وجوههم في جهنم.

٣-لاحظ الموسيقى والائتلاف اللفظي النغمي المدرك بحاسة خفية في بنائه العجيب الذي يؤاخي بين حروفه ومداته وغناته، وفي تنقله بين الجهر والهمس فيقترب من الشعر وما هو بشعر، إذ استعار من بحر الرمل قوله ﷻ: ﴿ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وقدور راسيات﴾ و قوله ﷻ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُون﴾ بوزن شطر بيت من بحر السريع، وقوله: (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا﴾ على بحر الرجز.

٤-تمكن الفاصلة في موضعها: فهي لا ترِد مُقحمة أو متكلفة، إذ تؤدي دوراً مهما في الإيقاع الصوتي وفوق دورها المعنوي، فإن لها دورا صوتيا إيقاعيا على أكمل وجه، **وللفاصلة وظائف مهمة من حيث اللفظ كونها تعتمد على ما يأتي:**

أ-إنها تحسينٌ للكلام وراحة للنفس حين التلاوة.

ب-تعين على تلاوة القرآن مرتلا ومجودا بأنغام آسرة ذات إيقاع جميل.

ج-تكون قافيتها النون أو الميم المسبوقة بحرف مد أو لين وهذا من أفضل القوافي للتطريب وراحة النفس.

د-الحروف التي تقع بها الفواصل متآخية أو متقاربة أو متماثلة ولا تقع أبدا متنافرة، مما يعني حسن في التناسق وجمال في الإيقاع.

هـ-وقد تتكرر فاصلة بعينها ولهذا وظيفة معنوية إلى جانب الوظيفة الصوتية.

٥-إن موسيقا القرآن موسيقى ذات أفكار، فتوحي بمعنى يزيد عن دلالة النظم مثل قوله ﷻ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى. أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾،فأي إخلال بالنسق أو التنظيم سيخل بالإيقاع المستقيم في كل لفظة من ألفاظه وقد

خلا من القوافي المقحمة وهذه مزية فنية للإيقاع القرآني، وهذا يتجلى في لفظ (ضيزى) وما فيها من معان.

٦-تعدد أنواع الإيقاع القرآني وأساليبه وموسيقاه فمرة يكون قوياً ومرة يكون رخياً وتأتي موسيقاه مرة طويلة ومرة تكون قصيرة، **وهذا التنوع في الإيقاع يتبع جملة أمور ومن أظهرها:**

أ-قصر الفواصل وطولها، ب -انسجام البناء الداخلي للجملة ج -تنوع الجو والموضوع الذي تطلق فيه، ثمَّ إن الإيقاع يتنوع في السور بالقياس إلى الفواصل في طولها وتوسطها وقصرها، فالفواصل تقصر في قصار السور، وتتوسط أو تطول في غيرها، ويشتد التشابه في السور القصيرة، ويقل في السور الكبيرة، وهذه بعض الأمثلة: ففي سورة النجم قوله ﷻ: ﴿والنجم إذا هوى*ما ضل صاحبكم وما غوى*وما ينطق عن الهوى*إن هو إلا وحي يوحى* علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى*وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى﴾. فيها فواصل متساوية الوزن على نظام فريد، متحدة في حروف القافية، ذات إيقاع موسيقي متوسط متحد، تبعاً لجمله وآياته. وفي سورة مريم تبدأ بقافية الياء المنتهية بالألف اللينة فتستمر حتى نهاية قصة عيسى، قال ﷻ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾، ثمَّ يفاجئك التغيير في نسق الإيقاع إلى نظام قافية النون، والميم، المسبوق بمد طويل قال ﷻ: ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم، فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾، ثم يعود النسق إلى الإيقاع الرخي الندي إلى نهاية السورة، وكأن هذه الآيات التي تغير فيها الإيقاع، تصدر حكما بعد نهاية قصة عيسى، ولهجة الحكم تقتضي إيقاعا قويا، وأسلوبا موسيقيا غير أسلوب العرض والسرد القصصي المعروف.

-وفي سورة النازعات أسلوبين موسيقيين، أولهما أسلوب سريع الحركة قصير الموجة قوي المبنى، قال ﷻ: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا، والسابحات سبحا﴾، والأسلوب الآخر رخي الموجة متأني الحركة، متوسط الطول، ينسجم مع الجو القصصي قال ﷻ: ﴿هل أتاك

حديث موسى، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾.

والدعاء بطبيعته ضرب من النشيد الصاعد إلى الله ولا يحلو وقعه في نفس المتضرع إلا إذا كانت ألفاظه منتقاة، ..وإننا نجد ألوان الدعاء في القرآن متنوع بإيقاعاته، تبعاً لأجوائه، فهذا دعاء زكريا الشيخ الجليل المهيب متأجج العاطفة، تجد أصداء كلماته تتجاوب مع أعماق القلوب، بإيقاعاته الخاشعة التي يتكرر فيها ذكر ربه مع كل لحن من ألحانه، قال ﷻ: ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، و إني خفت الموالي من ورائي و هم العصبة و كانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا، يرثني يرث نبوتي و يرث من آل يعقوب يرث نبوة آل يعقوب و اجعله رب رضيا﴾، فيه إيقاع جميل تلونه الفاصلة المشددة، وتنوينها المحول عند الوقف ألفاً لينة، ((شقيا، وليا، رضيا))...وثمة لون آخر من ألوان الموسيقى، لم يكن معروفا في كلام الناس، لذلك كان اثره بالسامع عميقا، وكلما ردده ازداد حلاوة، بخلاف كلام الناس الذي يمله السامع إذا تكرر عليه، فهذا شان القرآن في كل إيقاعاته إذ ينساب انسياباً كالماء الهادىء، أو أنه يكون قوياً جداً فيعصف عصفا كأنه صر صرا عاتية، في تناسق فريد، تبعا للسياق ووحدة الموضوع قال ﷻ: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّارا﴾. تجد فيه الصخب والرهب ذا إيقاع عنيف وبناء قوي يصور لك المشهد تصويراً مرعبا، ثم ينتقل للون آخر تحس فيه اللين والنداوة والرخاوة تبعا لسياقه، قال ﷻ: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾. وظهر الآن الإعجاز الصوتي للأسماء الحسنى ، فقد تبين بالتجربة أن كل اسم له تأثير صوتي على الجهاز المناعي في الإنسان ، وأمور أخرى تبين أن اسم الله (الغفار) على وزن فعال له موضعه المحسوب بدقة في كتاب الله ، يختلف عن اسم الله (الغفور) على وزن فعول ، وله أيضا موضعه المحسوب بدقة في كتاب الله، فتبارك الله أحسن الخالقين الذي أكرمنا بهذا القرآن العظيم.